\*\*أغلال الوهم\*\*

رحل... فعل ما أراده دون أن يفكر فيه... لم يكلف نفسه عناء إبلاغه وجهاً لوجه، اكتفى بوضع ورقة على الطاولة والرحيل. تركه ليمسك بالبندقية ويصوبها نحو رؤوس الهاربين من القانون، وترك أخاه يتخيل نفسه يحمل نفس البندقية ويصوبها نحو رأسه بعد ذلك. لأول مرة يجد نفسه وحيدًا، مجردًا من أي كيان اعتاد أن يكون إلى جواره.

لوقت طويل، كان أخوه الشخص الوحيد بجانبه. لقد رحل دون أن يحدد موعدًا للقاء قادم. هكذا أصبح رسميًا رجلًا يعمل بالقانون كصائد جوائز، يتقاضى المال عن طريق تسليم المجرمين إلى قبضة العدالة، على حد وصفه. لطالما ولا يزال، ولربما لن يزول هذا الطبع فيه: حبه المبالغ فيه للإثارة منذ الصغر. كان عاشقًا للإثارة منذ طفولته، يهرب من دار الأيتام مع أصحابه ليختبئوا في المباني المهجورة، متلذذًا بنظرات الرعب على وجوه المربيات، متلهفًا لرؤية القلق في عيني أخيه، متعطشًا لشعور الاشتياق الذي يتركه في قلوب من حوله. يراهن الآن بأنه يضحك عليه، على خوفه وضياعه، على إحساسه المرير بالوحدة والحاجة.

بكى لساعات طويلة، تنقطع دموعه للحظات ثم تعود أكثر غزارة. لم يكن متأكدًا، في قرارة نفسه، إن كان أخوه الأكبر يحبه ولكنه يستمتع بتعذيبه، أم أنه يؤدي دوره كأخ بتلك القسوة الجافة. والآن، بات الشك أشبه بجنون. يكتب رسالة تلو الأخرى، يعبر فيها عن استيائه، عن كرهه الشديد له، عن عدم احترامه لضعفه وعدم مراعاته له بصفته الأخ الأكبر، ثم يبعث بها جميعًا إلى مكب النفايات. ماذا يفعل الآن ولم يبقَ لديه أحد بجانبه ليواجه معه هذا العالم القاسي، الممتلئ بالبشر عديمي الإنسانية؟

عاتبه أخوه الأكبر كثيرًا على تصرفاته الطفولية، وأمره بأن يلملم شتاته فلن يبقى دائمًا بجانبه، خصوصًا أن الموت يطرق جميع الأبواب بلا رحمة ولا يترك مجالًا لأحد، لا يفرق بين القوي والضعيف، ولا بين الفقير والغني. لكنه لم ينتظر الموت لكي يفرق بينهم.

\*\*ردًا عليه:\*\*

\*"ماذا يضرك وأنا أخوك أن أبقى ملازمًا لك أينما ذهبت؟ أليس من المفترض أن نعتني ببعضنا البعض؟"\*

نشأ كلاهما في ذات البيئة، تحت ذات الظروف، يتشاركان ذات الدم، بفارق ثلاث سنوات. فارقا والديهما عندما كان الأخ الأكبر في الثانية عشرة من عمره، بينما لم يكن الأصغر قد تجاوز التاسعة. كبرا في دار الأيتام ذاتها، غير أن الأكبر استطاع تجاوز المحنة سريعًا، بينما ظل الصغير أسيرًا لذكريات الفقد، يرى في كل بالغ يمر أمام عينيه طيف والديه الغائبين.

أما الأكبر، فقد ضاق ذرعًا برفقةٍ أثقلته بأعبائها، وعندما يغيب عنها للحظات يشعر وكأنه يتنفس للمرة الأولى. لم يكن يعرف كيف يخبره بأنه يخطط للزواج، وأنه يريد أن يمحو ملامحه من ذاكرته ليغرق في ملامح امرأته المستقبلية. سئم رؤية الرجال من حوله، ضاق ذرعًا برائحة العرق والشوارب الكثيفة، أراد أن يغرق في عطر نسائي يدوم لساعات، لا مجرد لحظات عابرة في متجر للعطور.

مرت ثلاثة أيام وهو مستلقٍ على سريره بلا حراك، لم يذق خلالها سوى الغبار المتراكم على لسانه. كان يحاول استيعاب الحياة التي أُلقيت على عاتقه فجأة، يشعر بثقلها يتضاعف فوق صدره. لم يحتج أخوه الأكبر سوى لعام واحد، بالكاد، ليعتاد الحياة بعد أن تخلى عنهم أقاربهم فرارًا من الفقر. أما هو، فقد بقي يبكي طوال سنواته الخمس الأولى في دار الأيتام، لا يهدأ إلا عندما تتعلق روحه بأحد المربيات، يناديها "ماما"، ويشعر للحظات أنها أمانه الوحيد. لكنهن جميعًا يرحلن، تاركين إياه في دوامة بكاء جديدة، بينما ينظر إليه رفاقه الذين بدأوا يربون شواربهم بازدراء، وأخوه الأكبر يشيح بنظره عنه وكأن وجوده يجلب له العار. ولعل هذا هو السبب الرئيسي وراء ذهاب الأخ الأكبر للعمل بعيدًا عنه، ليس الثراء السريع الذي يجنيه من جلب المجرمين، ولكن ابتعاده عنه بشكل دائم. ولعل قراره كان مستعجلًا جدًا، لكنه لا يبالي بمقدار الضرر الذي سيتركه وراءه. يظن بأنه سيتحرر من أغلال وجوده حوله، فلا حاجة له بعد اليوم في مجالسة طفل يبلغ من العمر تسعة عشر ربيعًا.

ترك سريره عندما شعر بأن الجوع بدأ ينهش أحشائه. الآن، إما البحث عن لقمة العيش أو الموت جوعًا. اتجه إلى الحمام واستحم بأقل قدر من الماء المتبقي، الماء الذي قُطع منذ خمسة عشر يومًا بسبب تأخرهم في سداد الإيجار. ارتدى ما تيسر من ملابس أقل قذارة، ووضع العطر الذي نسي أخوه أخذه معه، ثم خرج إلى أقرب مطعم. ينتظر كصقر مترصد، يراقب الصحون على الطاولات، يتربص بما قد يتركه الزبائن خلفهم. بعد بضع محاولات، تمكن أخيرًا من انتشال نصف شطيرة وعصير برتقال قبل أن تزيلهما أيدي العمال. لم يكترث أحد، ثيابه الممزقة تكفي وحدها لتروي قصته.

عاد إلى الشقة واتجه إلى منزل سيدة عجوز تقطن في الطابق الأرضي. ارتجا منها أن يستخدم الهاتف لدقائق، فوافقت والحزن بادٍ على وجهها، فقد علمت عن ترك أخيه له. لم تحب ذلك الأخ قط، كان مغرورًا رغم فقره، وأنفه مرفوع دائمًا نحو السماء. أما هذا، فألطف من الطفلة ذات الأربع سنوات بكثير. غالبًا ما تطلب منه أن يقضي لها بعض حوائجها مقابل مبلغ لا بأس به من المال. استأذنها لاستخدام الهاتف الأرضي، واتصل ودعواته القلبية أن تجيب الهاتف. يحاول الاتصال بإحدى المربيات التي لم تتردد في إعطائه رقمها، شرط ألا يتصل إلا في حالة الضرورة، ليحكي لها ما حدث والدموع تهطل من عينيه مختلطة بشهقات ومخاط. لم يكن بوسعها إلا أن تخفف عنه ببضع كلمات، ثم تطلب منه التوقف عن البكاء وتهدئة روعه. ولعل هذه الفكرة خطرت سابقًا على باله، لكنه لا يمتلك نفسه ليحدد ما يريد. من طريقة حديثها، لم يظهر عليها أي نوع من الاستغراب لفعلة أخيه. هي الآن في مأزق ولا تعرف كيف تتصرف، فليس هو بالطفل حتى ترعاه، ولا هو لديه أهل ليرعوه. فإما يموت من الجوع في الشارع، أو يؤذي نفسه بطريقة ما. بقيت ثوانٍ تسمع بكاءه المكتوم، قبل أن تخطر على بالها فكرة، وهي الطريقة الوحيدة التي تستطيع مساعدته بها. أعطته عنوان مكتبة يعمل فيها أحد أقاربها، وترجته أن يلملم شتاته لبضعة أسابيع، وتهون بعدها حاله. وعدته بأنه يستطيع الحديث معها لنصف ساعة في اليوم، وفي بعض الأيام لا، لانشغالها. طلبت منه أن يلتقي بأمين المكتبة ويخبره أنه جاء من طرفها. وبعد لحظة صمت جعلتها تشك بأنه سيرفض، وافق وترك الهاتف متجهًا نحو العنوان.

وصل بعد ثلاثين دقيقة من السير، وقابل هناك أمين المكتبة، وهو رجل في الأربعين، يرتدي نظارات مضحكة ولديه ابتسامة لطيفة. لديه صلع وراثي، ووجهه وديع والاحترام بادٍ عليه. أخبره الشاب بأنه من طرف المربية، فما كان من أمين المكتبة إلا أن وافق على توظيفه على الفور دون الخوض في البحث عن إجابات لتساؤلاته. بدأ الشاب بالعمل في تنزيل وتحميل الكتب في حافلات النقل. ورغم التعب الشديد الذي أصابه في الأسابيع الأولى بسبب ضعف عضلاته، إلا أن كل شيء يهون مع الأيام. لم يعد قادرًا على التركيز في دراسته الجامعية، فقرر تأجيل الفصل لحين استقرار أموره.

لاحظ أمين المكتبة الساعات الطويلة التي يقضيها الشاب في النظر نحو السقف في أوقات فراغه، فمه مفتوح ببلاهة، وقلة استيعابه واضحة عندما يُطلب منه أمر ما. عرف منذ الأيام الأولى سبب طلب قريبته الاعتناء بهذا الشاب، والحرص على إعطائه مرتبًا مقبولًا وتناوله طعامه وعدم الضغط عليه بالأعمال الشاقة. لاحظ الأمين كذلك أنه لا يمتلك أي أصدقاء، ولا ينظر حتى إلى الفتيات اللواتي يرتدن المكتبة، تصرف غريب لشاب في عمره. ولا حتى يحضر المحاضرات أو مناقشة الكتب التي تقام في المكتبة بين الحين والآخر، حتى في أوقات فراغه. يكتفي بالجلوس مثل روبوت مفصول البطارية. لذلك قرر أن يقترح عليه قراءة بعض الكتب والروايات، وأن يبدأ بالمشاركة في جلساتهم الحوارية. ولم يكن إقناعه بالأمر صعبًا، فلم يعترض قط على أي طلب من أمين المكتبة.

وفعلًا، ظهرت الابتسامة أخيرًا على وجهه عندما تم تشجيعه على مناقشة رواية قرأها، رغم تلعثمه وخيانة التعبير له. وجد تصفيق الحاضرين على ملاحظاته التي وُصفت بالدقيقة، وشعر أخيرًا بأنه مرحب به. استمر خلال الشهرين الأولين بالحديث مع مربيته السابقة، وتعجبت كيف أنه أصبح على غير عادته، سعيدًا فعلًا... وليس كالغريب في أرضه.

بدأ الفصل الدراسي في الجامعة، وعاد إلى الدراسة ولكن كشخص جديد. ترقى في المكتبة حتى صار مساعدًا لأمين المكتبة ومنظمًا لبعض الجلسات الحوارية. ولم يعد حتى يتحدث مع مربيته. تحول تمامًا إلى شخص جديد، ولم يتعجب من حوله من هذا التغير بقدر تعجبه هو منه. لكن نوبات الحزن والبكاء لا تزال تلاحقه على فترات. قرر مصارحة أمين المكتبة بمشاكله وطلب العون منه، والذي بادر بسحبه من يديه نحو أقسام متعددة في المكتبة ليقرر قراءة كل الكتب الموجودة. وخلال شهور قليلة، تمكن من إنهاء كمية كبيرة من الكتب، ولم يعد يعاني كما كان في السابق. لكنه لا يزال يسأل: هل كانت المعرفة سبب العلاج أم الابتعاد عن أسبابها؟

تخرج من الجامعة بعد بضع سنوات كطالب متفوق، لكنه لم يتعلم من الجامعة بقدر ما تعلم من أمين المكتبة وتلك الجلسات الحوارية والمناقشات. يعتقد بعض الأشخاص أن القراءة وحدها سبب للمعرفة، لكن ماذا عن من يقرأ الكتب والروايات الفارغة؟ هل سيكتسب شيئًا حقًا؟

مرت بضع سنوات قبل أن يلتقي بها، فتاة جميلة ترتاد المكتبة بكثرة، تقتني أو تستعير كتابًا أو رواية من قراءاتها المفضلة، مثل دوستويفسكي وتولستوي من روسيا، وكافكا من ألمانيا، ولا ننسى فيكتور هوغو من فرنسا، والكاتب البريطاني جورج أورويل. فأشعلت بداخله الغرام. يراها مرة في الأسبوع، ولكن في كل مرة تزداد جمالًا فوق جمالها. أصبح على دراية ومعرفة واسعة بالكتب والروايات، كونه يعمل الآن أمينًا مؤقتًا للمكتبة. ولم ينتظر كثيرًا قبل أن يفاتح مربيته بموضوع الزواج، لتلعب دور والدته وتتقصى عن الفتاة.

وبعد أسابيع قليلة، أبلغته أن شأنها من شأنه، يتيمة شقت طريقها في الحياة بعائلة ترعاها، تتكون من أب وأم غير قادرين على الإنجاب، فكفلا أمرها، عاملاها أفضل معاملة، واهتما بدينها وأخلاقها وتعليمها، لتصبح مثالًا يُحتذى به بين الناس. ولكن رغم ذلك، قلّة من الشباب تقدموا للزواج منها، فمنهم من لم ترضَ عنه لسوء أخلاقه، ومنهم من رفضها عندما علم بأنها يتيمة. وحتى لو تربت في قصر، سينظر إليها بعض حثالات المجتمع على أنها "بنت شارع" لا يدري أحد أصلها. شجعته المربية على أن يبلغ أمين المكتبة بنواياه الصادقة تجاه الفتاة، وأن يأتي كوصي له. فوافق بلا تردد لمعرفته بالفتاة.

احتار حينها كيف يبلغها، هل يتكلف ويُفاجئها وهو لا يدري ما قد تكون ردة فعلها؟ أم يسألها بأدب إن كانت توافق على قدومه؟ فاحتار حيرة شديدة، وتملكه الخوف عندما وضع في حسبانه احتمال رفضها له. وبقي أيامًا لا يدري ماذا عليه أن يفعل، يتصبب عرقًا في كل مرة يسمع فيها صوت باب المكتبة، يخاف اليوم الذي تأتي فيه لتعيد ما أخذته سابقًا وتستعير غيرها. قرر أن يكتب لها رسالة على كتاب مميز من اختياره، لكن لم يسعفه الوقت، فظهرت فجأة أمامه، والابتسامة ترتسم على وجهها. وبقي يفكر لبعض الوقت قبل أن تناديه على استحياء:

\*\*"هل أنت معنا أيها السيد... أم غادرت روحك الجسد؟"\*\*

ليستفيق من سرحانه حائرًا لا يدري ماذا يفعل، فقال في قرارة نفسه: \*لقد حان الوقت، أخبرها بأنك تحبها وتريد الزواج بها... لا، لا، أخبرها فقط أنك تريد سؤالها إن كانت توافق أن تأتي لمنزلها لتخطبها، لا داعي أن تعلم بحبك.\*

فتسعت عيناها كأنها تسمع كل كلمة قالها، وبقيت تنظر إليه بذهول لثوانٍ، قبل أن ينظر حوله في المكتبة، ليجد العيون تحملق من كل حدب وصوب، بين من يكتم ضحكته ومن يشعر بالإحراج. خيم الصمت على المكان، صمت يفوق الذي اعتادته المكتبة. ثم سمع وقع خطواتها وهي تبتعد، فوجد نفسه يلاحق ظلها الذي يرحل بعيدًا. وبعد لحظات قليلة، عادت حال المكتبة كما كانت قبل وصولها. ولم يظن حينها أنه سيراها قريبًا.

ليدخل طفل صغير بعد دقائق معدودة، يحمل بين يديه رواية استطاع تمييزها من بعيد: رواية "البؤساء"، التي اقترحها بنفسه للفتاة. فتح الصفحة الأولى ليجد ورقة صغيرة، كتبت فيها الفتاة أنها لا تمانع أن يأتي لخطبتها، ولكن بعد أن تُبلغ والدها. رسمت قلبًا صغيرًا في نهاية السطر، كإشارة بأنها تبادله المشاعر.

ذهب الشاب برفقة أمين المكتبة (كوصي عليه) إلى منزل الفتاة ليقابلا أباها (الوصي عليها)، لتبدأ مرحلة التعارف بين العائلتين. أدرك حينها الشاب أنه فعلاً كان فردًا حقيقيًا من عائلة لم يعرف بوجودها، عائلة تتكون من أبيه أمين المكتبة، وأمه المربية، والكثير من الكتب كأفراد من عائلته الممتدة. يرى في كاتب ما جده، وكاتبة أخرى عمته، أخذ منهم ما كوّن نفسه خلال السنين الماضية.

تمكن أمين المكتبة من إقناع والد الفتاة بجدارة الشاب، ولكن طبعًا بعدما تعرف عليه شخصيًا. قبل به كزوج لابنته. استطاع بالمال الذي ادخره من مرتبه كعامل في المكتبة أن يشتري شقة لا بأس بها، تقع في الطابق أسفل شقته القديمة مع أخيه. وبين سعادته العامرة بزوجته وذكريات تضايقه عن أخيه، تذكر أنه له أخ بعد أن نسيه لسنوات. وعلى الرغم من أنه لا يعلم ماذا حدث له، إلا أنه أحياه بالتحدث عنه، أخبر زوجته بالكثير من قصصهم وهم صغار، حتى أنه اقترح عليها أن يسميا مولودهما الأول إن كان ذكرًا على اسم أخيه.

أما زوجته، فهي محتارة جدًا من أمره، كيف لا يزال يحمل مشاعر تجاه الشخص الذي تركه وراءه؟ ولعل ذلك بسبب التعلق، لا بداعي الحب أصلاً. أصبحت تكره ذكر أخيه حتى الموت، لكنها تصمت حبًا في زوجها وإرضاءً له، ولم تعترض على الفكرة. حتى جاءهم مولودهما الأول وسَمّياه على اسم أخيه الكبير.

مرت بعض السنوات وقد بلغ الصغير أربعة أعوام، وبينما يلعب ويركض في الشقة وأبوه وأمه ينظران إليه بسرور شديد، يقبل يدها وهو يحمد الله على كل ما أعطاه من نعم، وعلى إجابته عن سبب كل معاناة عاشها في حياته. من اليوم الأول، كلها كانت تمهيدًا لهذه اللحظة. لكن يبقى هناك سؤال واحد لا يزال يفكر فيه ولم يجد الإجابة بعد: \*\*ماذا حدث لأخيه؟\*\*

في أوج فرحه وسروره... سمع رنين الهاتف الأرضي، فجاب ليسمع موظفة تعمل في المستشفى تطلب منه الحضور بشكل عاجل. تملكه الخوف وهو يفكر فيمن يكون عزيزًا عليه وهو في المستشفى. وسرعان ما انطلق برفقة زوجته، مُسلّمًا ابنه إلى جده قبل الذهاب مباشرة إلى المستشفى.

أخذوه إلى المشرحة برفقة رجال من الشرطة، فباغته رجفة قوية في سائر جسده، وانطلقت نحو زوجته الممسكة بيده. وقفا بين مجموعة من رجال الشرطة وأحد الأطباء الذي كان واضحًا أنه المسؤول عن الجثث في المشرحة. يفصل بينهم جميعًا جثة في المنتصف، أغفل عن ملاحظتها من شدة التوتر.

أومأ المحقق برأسه للطبيب أن يزيل الغطاء عن الجثة، ليجد الشاب جثة أخيه الذي فارقه منذ حوالي تسع سنوات. استطاع التعرف عليه بسهولة تامة، رغم اللحية الكثيفة التي أنبتها، والتجاعيد الكثيرة على وجهه بشكل غريب، رغم أنه يكبره بسنوات قليلة إلا أنه بدا كما لو كان في الخمسين.

سأله المحقق ما إذا كانت الجثة لأخيه، ليجيب بكل برود:

\*\*"نعم، إنها كذلك."\*\*

ترك المكان بكل برود، لتلحقه زوجته والدموع تنهمر من عينيها. وبينما هو يهم بالمغادرة، أوقفته إحدى الممرضات لتبلغه أن الشرطة ستبقي على الجثة لبضعة أيام للتحقيق قبل أن يُسمح له بأخذها ودفنها. فأومأ برأسه موافقًا وترك المكان دون أي رد فعل.

أصاب الهم زوجته وهي تفكر بالطريقة التي سيتعافى بها من خسارة أخيه. لعنته بقلبها أشد اللعن وهي تنظر إلى الجمود الذي أصاب زوجها. يمشي في الطرقات بلا تعابير حية على وجهه، لعله ينتظر وصوله إلى منزله ليبكي مثل الأطفال. اتجه إلى منزل والدها لأخذ ابنهما، وعادا إلى المنزل. بقي على حاله طوال الطريق، حتى إذا به يدخل المنزل ويأخذ حمامًا طويلاً، ثم يبدأ باللعب مع الطفل كأن شيئًا لم يحدث. يسأل زوجته ماذا ستُعد للعشاء، وهي عاجزة عن التعبير، تشنجت عضلات وجهها من الصدمة وهي لا تدري بماذا ترد، قبل أن تسأله بتردد:

\*\*"ألست حزينًا على ما حدث لأخيك؟"\*\*

أنزل الطفل وتركه يركض مبتعدًا، بقي في مكانه للحظات لا يدري ماذا يقول. بعد لحظات من التفكير، قال بجمود:

\*\*"عندما أبلغتني الممرضة أن الشرطة تطلبني للتحقق من هوية جثة... لم يكن لدي مثقال ذرة من الشك أن الرجل الميت هو أخي... ورغم ذلك، لم أشعر بشيء... سبب توتري أني خفت أن يكون شخصًا آخر. حتى عندما رفع الطبيب الغطاء عن رأسه وتأكدت تمامًا أنه أخي... لم أشعر بشيء... حتى هذه اللحظة."